كان وقبائلها «12»

محمد القعود
Kood500@hotmail.com

كان المقهى
يمتصّ هموم روّاده،
يبثّ أنغام النشوى،
ويغضّ الطرف – بتسامحٍ نادرٍ –
عمّن يهرب دونما تسديدٍ الحسّاب..
يكتم ضحكاته
إن رأى أحدهم
يرمق فتاة الغلاف بشراهة،
ويعبث بشيئه..
يتساهل دوماً
تجاه مَنْ تثقلهم الديون
ويخترعون عقب كل فنجان قهوة أعذاراً
تندّد بالوضع الاقتصادي
وبالراتب اللعين، الذي تأخر كثيراً.

كان المقهى
يميس طرباً، ويترنّح ابتهاجاً
إن ثملت الأرجاء بصوت أنثى
وهي تدلي بآهاتها الشعرية
المجرّدة من مفردات الابتذال.

كان المقهى
يحفظ مقامات الموسيقى
ومختارات من شعر الحكمة، وأبيات غزل
ويستشهد دوماً بأقوالٍ بليغة،
ويردد في خشوعٍ
آيات تحثّ على الصبر.

كان الحبّ
ينتظر مَنْ يأخذ بيده
كي يقطع الشارع العريض
دون خوفٍ من سيارة الحقد المسرعة.

كان الجندي
يعانق بندقيته بمودّة غير معتادة،
ويعتذر لها عن إيقاظها من سباتها العميق،
يطبطب على خصرها الأبنوسي بحفاوة صادقة،
يبدّد ريبتها الغائمة
ويقسم لها أن لا ينتهك شرف أصالتها،
يطمئنها أن كل شيء على ما يرام
وأن الأفق يلوح بالخير.

كان الدمار
يعلن تضامنه الكبير مع الفوضى،
ويطالب بصلاحيات إضافية،
واختصاصات جديدة،
يريد العمل بحرفية عالية
ويكره التقسيط في الإنجاز.

كان الدمار
يبشّر أولاده العاطلين عن العمل
بفرص ثمينة لتحقيق الذات والسلطة
وإعاقة وطن عن الازدهار.

كان الدمار
يقبّل أيادي العابثين
ويعدهم بحصص كبيرة من الأرباح،
وبحسناوات الفرس والفرنجة
وبقصور من مرمر وأرصدة مفتوحة
وبسلطات مطلقة لممارسة البغي والنهب،
وبصكوك غفران تحيل الجرائم إلى أوسمة.

كان الدمار
يسرّ لعشيرته النائمة منذ عقود طويلة:
آن لنا أن نحتفل بوليمتنا الكبرى
وأن نعلن ميلادنا المنتظر..
آن لنا أن نعيد ترتيب الخريطة
ونعيد هيبة الفزع.

كان السلام
يدفع نهاية كل شهر النفقة الشرعية
لمطلّقته الحرب، ويسدّد ديون كوارثها..
يعقد هدنة طويلة مع آثارها الفجّة،
ويتحمّل فوارق الفواجع..
يكفّر عن ذنوب غيره،
ويمتنّ لكل مَنْ يتنازل عن أنينه،
ويرفع الراية البيضاء
لكل مَنْ يعفو عن خيباته.

كان السلام
يعمل بكد ومثابرة ملفتة للأسى
كي يفي بالتزاماته المتعددة،
ويخفّف عن كاهله
ديون الآلام ومستحقات الحياة.

كان السلام
يسير مرتبكاً بين حاجزين مسلحين
مكشوف الرأس، حافي القدمين
وتوسوس له نفسه الآمرة بالوطنية
أنه ليس في وطنه
وأن ما يراه ليس إلا مشهداً عجائبياً من
أفلام الرعب.

كان السلام
يسافر إلى أقربائه وحيداً
وينسى أن يصطحب بطاقته الشخصية،
ويفكّر ماذا سيقول لبرابرة العصر
إن سألوه عن اسمه وكنيته
وسيرة عشقه، وانتمائه الحزبي؟
ماذا سيقول لهم لو طلبوا منه إثبات
شخصيته
وضمانة عمله في أزمنة الرصاص؟

كان السلام
يتذكر أنه من سلالة طيبة
ويحب كل الكائنات
وينتشي لشقاوة الأطفال
ويمقت قطاع الطرّق والأشجار
ويحب كثيراً سماع «فيروز»
وأغاني الرعاة وأهازيج الحقول.

كان السلام
ينهل من ينبوع الصبر
ويدغدغ أوجاعه المتراكمة
برحلة رائعة إلى الجمال.

كان الحنين
يحمل جميع أغراضه
ويبحث عن مدينته التي قرض أطرافها
الأسمنت،
وشوّه سمعتها مراسلو الفضائيات
الرديئين،
ويبحث عن تناغم افتقدته الأسواق
ونكت منقوعة بالعنب والرمّان
وبسمات خجولة يتم تسريبها
من خلف أشجار النرجس والريحان
والمشربيات الخشبية..
يبحث عن الطاعنين في الحكمة
والمتطهرين من رجس الأنانية.

كان الليل
يعود في ساعةٍ متأخّرةٍ من الظنون،
حافي القدمين، يترنّح في خطاه،
يثير جلبةً في الحارة النائمة،
يغنّي بصوتٍ قبيح، أغنية مرحة،
يرقص كيفما اتفق،
ويدعو جاره المتعب
لمشاركته بقية السهرة حتى مطلع النعاس.

كان الليل
يستعرض عضلاته تحت نوافذ الغواني
ويتصابى أمام أرامل الحروب..
يكثر من تدخين السجائر المهرّبة
ويفرط في رصيد شهقاته..
يمرّ من أمام المتآمرين
ويلقي عليهم موعظة أخلاقية
ودرساً في السيطرة على عقول الآخرين،
وتسويق الوطنية.

كان الجوع
يلتهم تاريخ الأشجار
ويلعن عقب كل وجبة
صنّاع العولمة، وثقب الأوزون
ومنظّمات البيئة.

كان (...)
يؤجج حماس الظلال
ويبشر الماضي ببؤس جديد،
يفصّل بزّته المرقّطة
ويمنحها لوثة من خراب،
يسير مبقّعاً بفوضى عرجاء
ويهتف بصفير مسلول :
– حيّ على الرماد!!

كان (...)
يتّشح بجوع الجراد
ويدوزن أباطيله وأراجيفه
على أمجاد الخيبة،
وداعي القبيلة، وبكاء الرباب.

كان (...)
يؤثّث الهشيم بالوعود الصدئة،
ويزف إلى فائض الضياع
قطيعاً من القطط العمياء
وهزيعاً من الحلم الكئيب.

● مقاطع من نص طويل

إصدارات ثقافية

الأرستقراطية وأعداؤها

■ يتفق الجميع أن الثورة الفرنسية الكبرى، المعروفة باسم الثورة البورجوازية التي قامت في عام ١٧٨٩ هي أحد أكبر الثورات في التاريخ الإنساني. لكن تلك الثورة عرفت في سنواتها الأولى نزاعات وفترات إرهاب وقمع دموي ومنافسة حادّة على السلطة. والمؤرخ البريطاني «وليام دويل»، المختص بالقرن التاسع عشر الفرنسي عامة وبالثورة الفرنسية يناقش في كتابه «الأرستقراطية وأعداؤها» دور الأرستقراطية الفرنسية ومكانتها في سنوات الثورة وما تعرّضت له من هجوم قبل أن يعود نجمها للصعود من جديد في القرن التاسع عشر بعد فشل «الثوريين» في إنهائها رغم كل ما أصدروه من قوانين ترمي إلى «إلغائها». وهذا ما يناقشه المؤلف على مدى الفصول التسعة التي يتألف منها هذا الكتاب.

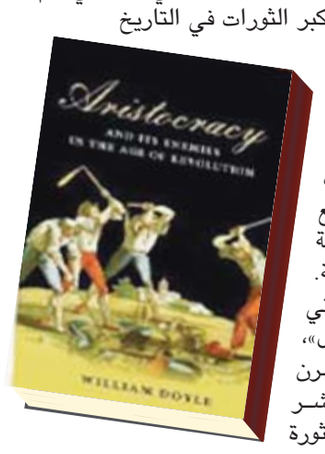

وتحت عنوان «الارستقراطية الصاعدة: عالم الارستقراطية في القرن التاسع عشر» يبيّن المؤلف كيف أن إرادة التخلص النهائي من الارستقراطية الفرنسية التي سادت خلال ما يعرف بـ«النظام القديم»، أي السابق على الثورة الفرنسية، بدت أنها عاجزة عن تحقيق هدفها.

ذلك أن النبلاء الارستقراطيين استطاعوا بعد فترة من القمع الذي تعرّضوا أليه ونزع ملكياتهم، استرداد الكثير من ممتلكاتهم. لكن هذا لا يمنع المؤلف من القول أن النبلاء الفرنسيين في القرن التاسع عشر كانوا قد عرفوا «تحوّلا» حقيقيا وبقيت عالقة في أذهانهم التجربة الثورية بحيث أنهم لم يستعيدوا واقعيا دورهم وامتيازاتهم القديمة.

ويشرح المؤلف أن الارستقراطية سادت في فرنسا، وفي أوروبا عامة، خلال فترة زمنية طويلة وعرفت أوج سلطتها في القرن الثامن عشر إلى أن حلّت الحقبة الثورية اعتبارا من مطلع عقد التسعينات في القرن الثامن عشر حيث واجهت تلك الارستقراطية محاولات الانتهاء منها بصورة كاملة. لكن الارستقراطيين لم يكونوا يشكّلون مجرد طبقة فحسب، بل كانوا سلطة حقيقية لديها تفرعاتها داخل المجتمع، وذلك بمساعدة عدد من الإيديولوجيين والمؤرخين.

ويلقي المؤلف نظرة تاريخية على تشكّل الارستقراطية في أوروبا حيث يعيد أصولها إلى العصور الوسطى. وكان أفرادها في الأصل، إلى جانب طبقة الفرسان، من المحاربين الذين أقسموا يمين الولاء لحاكمهم مقابل منحهم ساحات من الأرض.

لكن مرتبتهم «القتالية» تراجعت بعد تشكل الجيوش الحديثة بينما احتفظوا بممتلكاتهم من الأرض وخلافها.

كذلك تدنت تدريجيا مرتبتهم الاجتماعية. الاقتصادية بعد تعاظم دور شرائح جديدة من التجار والحرفيين اعتبارا من عصر النهضة الأوروبي في القرن السادس عشر. هكذا كان التاجر الثري في المدينة أكثر نفوذا من النبيل ـ الارستقراطي ـ الصغير في الأرياف.

ويشرح المؤلف أنه في فرنسا هبطت مكانة طبقة النبلاء القديمة ذات الأصل العسكري «نبالة السيف» بينما ارتفعت مكانة طبقة نبلاء جدد، خاصة بين أولئك الذين منحهم الملك مرتبة في القضاء، وما يُعرف بـ«نبالة القضاء». هكذا كانت ترتسم في الأجواء منافسة على السلطة. ووجدت تلك المنافسة ترجمتها الكبرى في الثورة الفرنسية التي اعتبر فيها الثوريون أن الارستقراطيين يمثلون بحكم طبيعتهم وما يمثلونه من مصالح طبقة تضطهد الشعب.

وباسم هذا الشعب حاولت الحكومات الثورية أن «تلغي» الارستقراطية، كما يشرح المؤلف في فصل يحمل عنوان: «إلغاء الارستقراطية: صعود وانحطاط نظام النبلاء». وتتم الإشارة في هذا السياق إلى أنه في ليلة ٤ اغسطس من عام ١٧٨٩، عام الثورة، جرى إلغاء مرتبة «النبيل» رسميا لتحل محلها كلمة «ارستقراطي». لكن بعد عشرة أيام فقد تحدّث الثوريون عن «اكتشاف مؤامرة يحيكها الارستقراطيون». وكانت الشعارات التي رددها الجميع آنذاك: «الارستقراطيون إلى أعواد المشانق».

ورغم إعادة الاعتبار التي عرفتها الارستقراطية في القرن التاسع عشر، كما يشرح المؤلف، فإنه خلال سنوات ما بعد ١٧٨٩ أصبحت صفة «الارستقراطي» لكل أولئك الذين كانوا يبدون أن سلوك يقترب مما كان سائدا في ظل «النظام القديم».

وجرت في ذلك السياق أشكال عديدة من التجاوزات إذ لم يتردد أعداء الارستقراطيين في تحملهم وزر جميع الأخطاء والجرائم ونالوا بذلك العقاب في شخصهم وفي ممتلكاتهم. وهذا ما يشرحه المؤلف بالكثير من التفاصيل في الفصل الثامن من الكتاب المكرّس لسنوات: «١٧٩٠–١٧٩٠»، كما يؤكد عليه في الفصل الأخير الذي يحمل عنوان «الإرهاب خلال سنوات ١٧٩٢–١٧٩٩».

لقد حاولت ثورة ١٧٨٩ البورجوازية في فرنسا أن تلغي أعداءها الارستقراطيين، لكنها لم تفلح في ذلك إذ عادوا للنهوض من جديد مع بدايات القرن التاسع عشر. لكن «تجربة الثورة» تركت آثارها عميقة عليهم.

وما يحاول وليام دويل، مؤلف هذا الكتاب، البرهان عليه هو أنه إذا كان الثوريون الفرنسيون قد أخفقوا في محاولتهم الرامية إلى «إزالة» الارستقراطية ونبلائها فإنهم دفعوا إلى ولوج مسيرة الانحطاط الارستقراطي خلال القرنين المنصرمين.

المؤلف في سطور

وليام دويل هو مؤرخ بريطاني مختص بالقرن التاسع عشر الفرنسي، أستاذ في جامعة بريستول وعضو الأكاديمية البريطانية. من مؤلفاته: «تاريخ اكسفورد للثورة الفرنسية» الذي أصبح مرجعا في ميدانه و«الثورة الفرنسية: تاريخ مختصر» و«روبسبيير» و«أصول الثورة الفرنسية»، الخ.

امتيازات النبلاء

الانتماء إلى النبلاء الارستقراطيين كان يعني الحصول على العديد من الامتيازات، الموروثة في أغلب الأحيان، ولكن التي قد تكون فردية. وبكل الحالات كان النبلاء ينتمون إلى الشرائح الأكثر علوا في المجتمع خلال الحقبة الإقطاعية. وكان الارستقراطيون الفرنسيون يتمتعون في فترة ما قبل الثورة الفرنسية بكثير من الامتيازات على صعيد الضرائب وغيرها.

الكتاب: الارستقراطية وأعداؤها
تأليف: وليام دويل
الناشر: جامعة اوكسفورد ٢٠٠٩
الصفحات: ٣٨٤ صفحة
القطع: المتوسط

رواية حول تصارع الهويات وتحاورها

■ صدر عن مشروع «كلمة» للترجمة التابع لهيئة أبوظبي للثقافة والتراث رواية «بلد آخر» للكاتبة الجنوب أفريقية نادين غورديمر، الحائزة على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٩١، ومن ترجمة سامر أبو هواش.

تعالج الكاتبة في هذه الرواية قضيتي الهجرة والهوية، وذلك من خلال قصة شاب (من أصول عربية) يهاجر إلى جنوب أفريقيا ويقع في غرام فتاة جنوب أفريقية يجد فيها خلاصاً لوضعه غير القانوني كمهاجر غير شرعي، في حين تجد هي فيه تعبيراً عن رفضها لبيئتها البورجوازية التي أفرزتها مرحلة ما بعد انتهاء نظام التمييز العنصري في بلدها. وسرعان ما تتكشف لدى سفر الفتاة إلى بلد حبيبها – الذي أصبح زوجها – وذلك بعد رفض منحه إقامة في جنوب أفريقيا مواجهة بين نمطين من العيش. وهناك تبدأ رحلته في البحث عن بلد هجرة آخر، في حين تبدأ هي رحلتها في اكتشاف ذاتها من خلال قرية زوجها العربية المسلمة وعائلته، ولاسيما الصحراء التي تغدو ملاذها الوحيد، وسط عاصفة من الأسئلة لدى كل من الاثنين عن الحبّ والوطن والانتماء والهوية، والتي تنتهي نهاية غير متوقعة...

ولدت المؤلفة نادين غورديمر في بلدة يبرينغز في ضواحي جوهانسبرغ عام ١٩٢٣، عرفت بكتاباتها التي تعالج النواحي الأخلاقية المتعلقة بقضية التمييز العنصري الذي لطالما عانى منه بلدها. لها العديد من الراويات من بينها: «عالم من الغرباء» ١٩٥٨، «مناسبة للحب» ١٩٦٣، «الناشطة البيئية» ١٩٧٤ التي حازت عنها على جائزة «بوكر»، وغيرها. حصلت في العام ١٩٩١ على جائزة نوبل للآداب.

المترجم سامر أبو هواش مولود في مدينة صيدا لأبوين فلسطينيين عام ١٩٧٣، شاعر وروائي ومترجم، من ترجماته: «على الطريق» لجاك كروك، «حياة باي» ليان مارتل، «بوذا الضواحي» لحنيف قريشي، «شجرة الدخان» لدنيس جونسون، «كتاب الشاي» لكاكوزو أوكاكورا، له في الرواية: «عيد العشاق» و«السعادة»، ومن أعماله الشعرية: «شجرتان على السطح»، و«تحية الرجل المحترم»، و«تخيط ثوباً لتذكر».